الباب الثاني
علم الفلسفة عند علماء العرب والمسلمين

كان العرب في الجاهلية مشغولين بطلب العيش، فلم يكن لهم يدٌ في الفلسفة ولا غيرِها من العلوم، لذا فهم يجهلون الفلسفةَ الإغريقية تماماً وكانوا مثالاً واضحاً لقول مأثور عند الفلاسفة: «يجب أن يعيش الفرد قبل أن يتفلسف».

وعندما دخلت العربُ الإسلامَ ودخلت بدخولهم كثيرٌ من الشعوب المجاورة لهم والبعيدة عنهم اتَّبعوا تعاليمَ الدين الحنيف في التعليم والتعرّف على أفكار الغير وعلومهم، ومن ثم اتجهوا إلى العلومِ الفلسفية مبتدئين بدور الترجمة من اللغات المختلفة وعلى رأسها اليونانية.

الفلسفة كلمة يونانية معناها الحكمةُ، وفيها يستنتج أنّ الفيلسوف هو الحكيم، وقد اتفق كلٌّ من الفارابي وابنِ سينا على أنّ الفلسفة هي إيثار الحكمة، والفيلسوف معناه: المؤثر للحكمة.

اهتمَّ الخليفةُ العباسي المأمون بعلم الفلسفة، فصرف الكثيرَ من المال للمترجمين والمحقِّقين لنتاج سقراط (٤٧٠- ٣٦٩ قبل الميلاد) وأفلاطون (٤٢٩- ٣٤٧ قبل الميلاد)، وأرسطوطاليس (٣٨٤- ٣٢٢ قبل الميلاد)لأهمية فلسفتهم لدى المأمون.

هناك أسبابٌ مهمة جداً لاهتمام الخليفة العباسي المأمونِ بعلم الفلسفة منها: أنه يعتقد أنّ الإنسان خصَّه اللهُ تبارك وتعالى بالذكاء والإدراك والمقدرةِ على التفكير، كما ميّزه أيضاً بالنطق، فهو يستطيع أنْ يتحدث عمّا في نفسه ويتخاطبَ مع من حوله من بني جنسه، ويقتنعَ ويقنع، وتفكيرُه دائم التجدد وعقله ينمو نمواً لا حدَّ له وتجاربه مستمرة التطور باستعمال أدوات المنطق.

وقد تمخَّضتْ عنايةُ المأمون بعلم الفلسفة بأنْ ظهر فلاسفةٌ مسلمون مثل: الكندي

والفارابي وابنِ طفيل وابن رشد وغيرِهم، ممن لم يكتفوا بنقل الفلسفةِ القديمة من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية فقط بل درسوها وشرحوها وفسَّروا الغامضَ منها وابتكروا نظرياتٍ فيها.

عندما اهتمَّ علماءُ العرب والمسلمين بترجمة كتب الفلسفة اليونانية كان أكثرهم يجيد اللغةَ اليونانية، وقد كانت لديهم أيضاً كتبٌ كثيرة في الفلسفة، خاصةً في مدن البحر الأبيض المتوسط كالإسكندرية وأنطاكيةَ وحرّان. وقد قام المأمونُ بتقديم الهدايا الثمينة للمترجمين وإيقافِ الحرب ضدَّ ملوك الروم للحصول على المخطوطات في كافة العلوم بما فيها الفلسفة، فنبغ الكثيرُ من علماء العرب والمسلمين في ميدان الفلسفة إلى درجة أنه يروى أنَّ الحكماء أربعة: اثنان قبل الإسلام: سقراط وأبقراط، واثنان بعد الإسلام وهما: الفارابي وابنُ سينا.

طبَّق علماءُ العرب والمسلمين علمَ المنطق على العلوم البحتة مثل الرياضيات والفيزياء، لذا فقد درسوا فلسفةَ سقراط ومنطق أرسطو الصُّوري وفلسفةَ أفلاطون لهذا الغرض.. كما إنّ علماء العرب والمسلمين يَعتبرون علمَ المنطق علماً ضرورياً لفهم الرياضيات والعلوم الأخرى، وأكثرُهم كان ملمّاً بعلوم شتّى في آن واحد، فمنهم من كان يشتغل بالرياضيات والطب والفلك والكيمياء والفيزياء وغيرِها.

اعتبر علماءُ العرب والمسلمين علمَ الفلسفة علماً هاماً لدراسة العلوم التقنية، وكانوا يفهمون تماماً أنّ (العلم الفلسفي ينظِّم العملَ، والعمل يتمِّم العلم)، وأحسن مثال على ذلك أنّ أبا حامد محمد الغزالي (٤٥٠ -٥٠٥ هجرية) فيلسوف الإسلام وإمام الإسلام الكبير قد قضى معظمَ حياته في دراسة الفلسفة والردِّ على الفلاسفة الملحدين. وكان رحمه الله يُعتبر عَلَماً من أعلام المنطق، كما إنه استخدم المنطقَ لنصرة الإسلام.

يجدر بنا أنْ ننبِّه القارىء الموقَّر إلى أنّ بعض علماء الغرب بل الكثيرين منهم يُنكِرون فضلَ فلاسفة المسلمين على علم الفلسفة، فالواجب علينا إذا أردنا أنْ نردَّ عليهم هذا الإنكارَ بالكشف عمّا حققه أسلافُنا من تقدُّم في علم الفلسفة وفي غيره من العلوم، أن ندرس المخطوطات العربية ونحققها ونظهرها إلى حيِّز الوجود من رفوف مكتبات العالم. كما يجب أنْ نُقنع علماءَ الغرب بالعمل الجادِّ أنّ اللاحقين دائماً

يستفيدون من نتاج السابقين ولذلك يكون مجهودُ المتأخِّرين عبارةً عن استمرار لعمل المتقدِّمين، كما اعترف أجدادُنا بفضل مَنْ سبقهم من علماء اليونان والهنود والفرس وغيرهم. وقد أعطى الإسلامُ الحريةَ لعلماء العرب والمسلمين أنْ يدرسوا الفلسفةَ ويتعمَّقوا في سبرها، على خلاف الأديان الأخرى مثل النصرانية التي تعتبر التكلُّمَ في الفلسفة اليونانية رجوعاً إلى الوثنية اليونانية.

الكندي:

هو أبو يوسف يعقوبُ بن إسحاق الكندي، عاش فيما بين ١٨٥- ٢٥٢ هجرية (٨٠١-٨٦٧ ميلادية). ولد الكندي في الكوفة، ودَرَسَ في البصرة على أشهر علمائها حتى برز في علم الفلسفة، فعهد إليه المأمونُ ترجمةَ مؤلفات أرسطوطاليس وغيرِه من فلاسفة اليونان، كما اهتمَّ الكندي بدراسة فلسفة علماء الهند، وفسَّر نظرياتهم وعلَّق عليها وكَتَبَها بأسلوب شيِّق مفهوم لمعاصريه، حتى إنّ فلاسفة ذلك العصر أقبلوا على نتاج الكندي إقبالاً مدهشاً، لحُسن اختياره للكتب التي ترجمها، ووضعِها بأسلوب في قالبٍ مقبول.

أجمع الناسبون على أنّ الكندي من آل كندة، الأسرةِ القحطانية العريقة التي حكمت اليمن لمدة طويلة من الزمن، كما كان أبوه أميراً على الكوفة، في عهد الخليفة العباسي المهدي، أما جدُّه الأشعثُ بن قيس فقد زحف إلى الحجاز، وأسلم على يد رسولِ الله ﷺ.

ويُعتبر الكندي من كبار المفكِّرين والفلاسفة العرب، فقد اشتغل في بغدادَ فلكيّاً وطبيباً، وفيلسوفاً ومات هناك.

وكان يمارسُ نشاطَه العلمي في عهد الخليفة المأمون، فالمأمونُ اهتمَّ بالكندي وبمؤلفاته، وشجَّعه على الإنتاج العلمي، خاصةً في الفلسفة وعلمِ الحِيَل.

وقد أعطى الكندي جلَّ وقته لعلم الحيل المعروف الآن بعلم الميكانيكا، فكان العلماء يعتمدون على نظرياته عند القيام بأعمال البناء، كما حدث عند حفر الأقنية بين دجلةَ والفرات، ويظهر واضحاً أنَّ الكندي لم يقصر نفسَه على علم من العلوم، بل كان موسوعةً في الفلسفة والفلك وعلمِ النجوم والطبِّ والرياضيات والطبيعيات والمنطق.

يُعتبر الكندي أولَ مفكِّر مسلم يخرج عن نطاق تفكير اليونانيين التقليدي، إذ وضع

منهجاً عاماً وقسَّم العلوم إلى أسسها الفكرية والمنطقية، فاعتبر أولاً العلومَ الفلسفية **وتشمل الرياضياتِ والمنطقَ والطبيعيات والفيزياء والسياسة وعلمَ الاجتماع، أمّا الثاني فهو العلوم الدينية وتحتوي على أصول الدين والعقائد والتوحيد والردِّ على المبتدعة والمخالِفين.**

وتقع فلسفةُ الكندي بين فلسفة أفلاطون وأرسطو، وهي بلا شك تعتمد على طريقة الاستنباط المنطقي التي كان يُعاني منها الكثير من الفلاسفة، واعتبر الكندي تعلُّمَ الرياضيات طريقاً إلى فهم الفلسفة، كما كانت فلسفة الكندي تعرف آنذاك بالفلسفة الحديثة.

أعطى الكندي جزءاً من وقته لعلم الهندسة فترجم الكثيرَ من مؤلَّفات علماء اليونان، كما كتب في هذا الحقل بما أفاد البشريةَ، وكان يتفق مع أفلاطون فيما يراه من أنه ليس في وسع إنسان أنْ يصبح فيلسوفاً من غير أنْ يكون قبل ذلك عالماً هندسياً، وقد بيَّن ووضَّح أنّ الرياضيات تكون بالبراهين وليس بالإقناع الشخصي ولا بالظنّ.

كان الكندي يعتقد أنّ بعض النغمات الموسيقية تَقْبض النفْسَ، وبعضَها يبسطها، لذا اهتم بدراسة الموسيقى، وله العديد من المؤلفات التي تبحث في الموسيقى منها رسالة الكندي في (النغم).

الفارابي: (٢٦٠-٣٣٩هـ = ٨٧٤-٩٥٠م):

هو محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابي ويعرف بالمعلم الثاني، أكبر فلاسفة المسلمين. تركي الأصل. ولد الفارابيّ في مدينة فاراب التي تقع وراء نهر جيحون -وهي حالياً في جمهورية تاجكستان التي كانت تتبع ما كان يُعرف بالاتحاد السوفيتي- وقد قضى والده مدة طويلة في الجيش حتى توصل إلى رتبة قائد.

أجمع علماءُ المشرق والمغرب على أنَّ الفارابي كان عازفاً ماهراً وعالماً بأصول الموسيقى وفروعها التي قادته إلى اختراع العود والرَّبابة وآلة القانون. لذا فهو المعلِّم الثاني في الفلسفة؛ والمعلمُ الأول في الموسيقى. كان موسيقياً تُنقل عنه الأعاجيبُ: يُضحك الجمهورَ ويُبكيهم أحياناً.

منعت الكنيسة النصرانية في أوربا خلال العصور الوسطى دخولَ فلسفة الفارابي

لما فيها من خطورة على معتقداتهم الخرافية، كما طردت الأساتذةَ الذين يأخذون بنظريات الفارابي الفلسفيةِ من الجامعات الغربية، بينما أوصى موسى بن ميمون الأندلسي اليهوّدي بدراسة فلسفة الفارابيّ.

عرَّف الفارابيُّ المنطقَ بأنه: علمُ التفكير الصحيح الذي يبحث في القوانين والطرق المؤدِّية إلى اجتناب وتلافي الأخطاء للوصول إلى الحقيقة، فهو يعلّمنا كيف ينبغي أنْ نفكّر للوصول إلى النتائج اليقينية من المقدّمات، واضعاً لذلك مقاييسَ تميّز بين الخطأ والصواب. ونسبةُ المنطق إلى سائر العلوم العقلية؛ كنسبة النحو إلى اللسان، وكما أنه لا يستقيم الكلامُ إلا بمعرفة القواعد النحوية؛ كذلك لا يرتاح الفكرُ إلى اليقين ما لم تكن له سنن المنطق سنداً ومرجعاً. أمّا في المرة الثانية فقد أوجزه الفارابيُّ بالتعريف وقال: (المنطقُ هو العلم الذي نعلم به الطرقَ التي توصلنا إلى تصور الأشياء وإلى تصديق تصوّرها على حقيقتها).

لا شكَّ أنّ الفارابي قد استفاد من ترجمته لكتب اليونان الفلسفية ودراسته لمؤلفات فيلسوف العرب أبي يعقوب الكنديّ، والتي أدخل الفارابيُّ عليها بعضَ التعديلات. وقد بلغ نتاج الفارابي ٦٩ مؤلفاً. انتقل معظمها إلى أوربا مع الحروب الصليبية من جهة ومع الحركةِ العلمية الأندلسية من جهة أخرى.

هناك قولٌ مأثور عن الفارابي، مضمونه: أنَّ الفيلسوف الذي يقف عند العلوم النظرية، ولا يتعدّاها إلى الجانب العلمي، هو فيلسوف باطل، ولا صلةَ بينه وبين الحياة. فالحياة علمٌ وعمل، ولا بدَّ للفيلسوف من أنْ يمتاز في عمله كما يمتاز في علمه.

لقد تشعّبتْ معارفُ الفارابيِّ الذي كاد يتطرّق إلى جميع العلوم النظرية والتطبيقية فلقد كان الموسوعةَ التي تمشي على قدمين، إذْ تكلّم عن المعادن ذات القابلية للتمدُّد بالطَّرق، كالصفائح وسحبها أسلاكاً، وعرَّفها تعريفاً علمياً، مثل: الذهبِ والفضة والرصاص والقصدير والنحاس والحديد والخارصين. كما قدَّم دراسةً كاملة بيَّن فيها فسادَ علم التنجيم، ونفى ما يزعمه المنجّمون من أنَّ بعض الكواكب تجلب السعادةَ وأنّ بعضها الآخر يجلب النحسَ. وفرَّق بين التنجيم وعلمِ الفلك الذي يرمي إلى دراسة حركات الكواكب دراسةً علمية.

يجب أنْ لا ننسى أنَّ الأجيال في الشرق والغرب تهتف باسم الفارابيِّ لأنه وهب حياتَه لخدمة العلم، فهو العالم الزاهدُ في الدنيا وحطامها فكان يتصدَّق بالكثير من ماله ويحثُّ على ذلك في كتاباته وأحاديثه، الكثيرون يعلِّلون هذا الزهد إلى نشأته حيث أنه كان ناطوراً في بستان بدمشق، فكان يسهر الليلَ على القراءة والتأليف على ضوء القنديل الموضوع للحارس، فلم يتزوجْ ولذا لم يتعرَّض للكلام عن الأسرة.

ومن المؤسف حقاً أنَّ الكثير من الغربيين عندما وقعتْ مصنَّفات الفارابيّ القيِّمة في أيديهم نقلوها إلى لغاتهم الأوربية المختلفة ونسبوها لأنفسهم، ولكنْ في الآونة الأخيرة بدأت الحقيقةُ تظهر وذلك لأنَّ كثيراً من طلاب العلم في العالم بدؤوا بدراسة مخطوطات الفارابيِّ التي ظلَّت مدةً طويلة على رفوف المكتبات يغمرها الغبارُ والإهمال.

ومن نصائح الفارابي المأثورة: « الأصدقاء صنفان: المخلصون وينبغي الإكثار منهم، ثم الأصدقاء في الظاهر فيجب الحذرُ منهم واستمالتهم إذا أمكن، أمّا الأعداء فهم صنفان: أهل الأحقاد، فيجب الاحتراسُ منهم وشكايتهم للناس حتى يعرف الناسُ أمرَهم، أمّا الآخرون وهم الذين لا يستطيعون الأذيّة الصحيحةَ فيجب إغاظتهم بذكر النِّعم أمامهم. أمّا سائر الناس فمنهم من لا يَحمل صداقةً حقيقية ولا عداوةً واضحة لشخص ما، فمنهم (النُّصحاء) فينبغي للإنسان أنْ يسمع منهم ويكرمَهم. ومنهم (الصُّلحاء) الذين يتبرَّعون بإصلاح ما بين الناس فهؤلاء جديرون بكل إكرام، ويجب التشبُّه بهم، ومنهم (السفهاء) فيجب الحِلْم والرزانة معهم، ومنهم (أهلُ الكبرياء والمنافسة) فيجب على المرء أنْ يقابلهم بمثل عملهم لأنه إذا تواضع لهم ظنوا ذلك ضعفاً منه». وتدلُّ هذه النصيحة على معرفةٍ عميقة بالنفس الإنسانية وبضعفها.. جعلنا اللهُ ممن عملُهم كلُّه في سبيله ولحبِّ مرضاته.

وصدق سيِّد حسين نصر عندما قال في كتابه (العلوم والحضارة في الإسلام): «إنّ الفارابي هو المؤسِّس الحقيقيُّ للدراسات الفلسفية الإسلامية، فهو الذي وضع أُسسها وشيَّد بنيانها فاعتمد عليه الكثيرون من فلاسفة الإسلام الذين أتوا بعده، ومنهم ابنُ سينا وابن رشد».

ابن طفيل :

هو أبو بكر بن عبد الملك بن طفيل الأندلسيُّ، ولد في وادي آش (تسمَّى الآن بالإسبانية Gaudix) بالقرب من غرناطة عام ٥٠٠ هجرية (١١٠٦ ميلادية)، وتوفي في مدينة مرّاكش بالمغرب عام ٥٨١ هجرية (١١٨٥ ميلادية) وشيَّع ملكُ المغرب آنذاك جنازته بنفسه تقديراً لمكانته العلمية العظيمة.

قضى ابنُ طفيل حياته في بلاط الموحّدين يدرس ويعمل طبيباً، واشتغل كوزير في حكومتهم، كان من العلماء المغرمين بالتجارب العلمية. انتقد بصراحة لا غموضَ فيها ولا التواء نظام بطليموس الفلكيَّ وخاصة نظريته القائلة بأنَّ الأفلاك ذاتُ مراكز متعددة، مع أنه اتفق في الرأي مع أرسطوطاليس في نظريته القائلة: (إنَّ الأفلاك ذات مركز واحد)، مما يدلُّ على أنَّ ابن طفيل صاحبُ منهج مستقلٌ بآرائه واتجاهاته الفلسفية.

اشتهر ابنُ طفيل بين تلاميذه مثل: ابنِ رشد والبطروجيّ ومعاصريه من علماء العلوم بمصنفاته ومنهجه العلمي الأصيل، ونقدِه البنّاء لمؤلفات مَنْ سبقه من علماء اليونان وعلماءِ العرب والمسلمين. وامتاز عن غيره بأسلوبه العلميّ السهل والدقيق، وحسن السبك والتعبير، ويتجلّى ذلك في قصة «حي بن يقظان» المشهورة.

كانت ثقافةُ ابن طفيل واسعةً، فاحتضنه حكّام زمانه، أمثالُ الخليفة أبي يعقوب يوسف من خلفاء الموحّدين، الذي تسلَّم السلطة سنة ٥٧٨ هجرية (١١٦٣ ميلادية)، فقد نال ابنُ طفيل حبَّه وتقديره، ولما لمس الخليفةُ يوسف في ابن طفيل من استقلال في الرأي ودقةٍ في الملاحظة وعمق في الثقافة، اتخذه طبيباً ووزيراً له.

قام ابنُ طفيل بدراسات مقارنة بين آراء المفكّرين قبله، فمثلاً قارن بين آراء بطليموس وأرسطوطاليس الفلكيةِ، واستند بذلك إلى نظريات وآراء أساتذته علماءِ العرب والمسلمين، مثل ابن باجه والكندي والفارابيِّ وغيرهم.

ولا ريب أنَّ علماء المشرق والمغرب قد اتبعوا طريقة البحث التي استخدمها ابن طفيل في طبِّه وفلسفته.

يعتبر ابن طفيل بحق أعجوبةَ زمانه، حيث تفوَّق في معظم فروع المعرفة. وقد بنى

آراءه في علم الفلك على علم الهندسة، لذا نجده قد برز في الرياضيات التطبيقية، ونال شهرةً عظيمة في علم الفيزياء. ويرى ابن طفيل أنَّ العالم يجب أنْ يكون ملمّاً بمعظم العلوم التي لها علاقةٌ ببعضها، وأنْ يكون مثقّفاً مدركاً لما يجري في العالم الذي حوله.

إنَّ أيَّ باحث يتكلَّم في علم الفلسفة أو علم الفلك أو علم الرياضيات أو علم النبات أو علم الحيوان أو العلوم الطبية أو علم الفيزياء لا يستطيع أنْ يتجاهل ما احتوته مصنَّفاتُ ابن طفيل من أفكار ونظرياتٍ علمية اعتمدتْ على التجربة المبدانية في هذه الموضوعات.

ولسوء الحظ أنَّ معظم مؤلَّفات هذا العبقريّ الفذّ فُقدت بسبب الحروب التي دارت بين المسلمين والنصارى في شبه جزيرة الأندلس. ولكنْ لا يزال هناك بعض الشذرات من هذه المصنفات التي توجد في مكتبات العالم الغربيّ، وخاصة الأسكريال في إسبانيا والمتحف البريطاني في لندن والمكتبة الأهلية في باريس ومكتبة الفاتيكان في روما وغيرها، ومنها:

١ - قصة ابن يقظان التي ترجمت إلى لغات العالم لأهميتها.

٢- أسرار الحكمة المشرقية.

٣- شرح الآثار العلوية لأرسطو طاليس.

٤- كتاب في الطبّ.

قامت فلسفةُ ابن طفيل على دراسته الواسعة للعلوم الرياضية والطبيعية معاً، ولهذا كان منهجه العلميُّ يجمع بين التفكير الرياضيّ والتجربة العلمية. لقد كان لنظريات ابنِ طفيل الفلسفية تأثيرٌ على التفكير الفلسفيِّ، وخاصةً على فلاسفة أوربا بعد عصر النهضة الأوربية.

وخلاصةُ القول أنَّ ابن طفيل كان مدرسةً في الفلسفة، ومن أصحاب الكفاءات النادرةِ الذين أسهموا إسهامات مبتكرة في فروع العلوم البحتة، كما أنه برز بروزاً ملحوظاً في العلوم التطبيقية، إذ كان يحب التجربة والمشاهدة. وقد خالف ابن طفيل كثيراً من آراء علماء الفلسفة والفلك الذين سبقوه من مسلمين ويونانيين، فقد كان ذا ثقافة عميقة وشاملة، وكان يمتاز بأسلوبه السهل السلس.

وصدق قدري حافظ طوقان عندما قال في كتاب (العلوم عند العرب والمسلمين) ما نصه: « في القرن الثاني عشر للميلاد، في الأندلس مفكّر عربيٌّ عظيم ترك آثاراً خالدة في ميدان الفلسفة وهو ابن طفيل. من أصحاب الكفاءات الفريدة، ومن جبابرةِ المفكّرين في القرون الوسطى في رأي الكثيرين من مؤرّخي العلوم، شغل منصب الحجابة عند حاكم غرناطةَ، وتبوّأ مركزاً للوزارة عند الأمير ابن يعقوب يوسف عبد المؤمن صاحبِ المغرب، وكان لهذا الأمير الفضلُ الأكبر في بروز مزايا ابن طفيل العقلية، إذ شمله بعطفه، وأحاطه برعايته، وسهّل له استغلالَ مواهبه التي جعلتْ من ابن طفيل عالماً فلكياً ورياضياً وطبيباً وفيلسوفاً وأديباً من الطراز الأول».

ابن رشد:

هو محمدُ بن قاسم أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الحافظ القرطبيُّ، يكنّى أبا الوليد. ولد في قرطبة واشتهر في أوروبا باسم (فيروس)، عاش فيما بين ٥٢٠- ٥٩٥ هجرية (١١٢٦ - ١١٩٨ ميلادية) نال شهرةً عظيمة بين معاصريه في كلٍّ من علوم الفلسفةِ والطبّ والفقه واللغة والأدب، ولكنه ذاع صيته في العالم بتميزه في علمي الفلسفة والطبّ.

كانت مؤلفات أرسطوطاليس فيها شيءٌ من الغموض، فأسند الخليفةُ أبو يعقوب يوسف (أحدُ خلفاء دولة الموحّدين في المغرب) لابن رشد إعادةَ النظر في ترجمة مصنّفات أرسطوطاليس الفلسفية.

كما كان الخليفةُ يوسف معجباً به وبذكائه الخارق للعادة، فقرّبه منه وعيّنه طبيباً ووزيراً له بدلاً من ابن طفيل.

وعندما توفي الخليفة أبو يعقوب خلفه ابنه المنصورُ، فنال ابنُ رشد مرتبةً عظيمة لديه في بادىء الأمر. ولكنَّ الوشاة اشتغلوا عليه لدى الخليفة المنصور فأبعده ونفاه إلى مدينة اليسانة التي معظم سكانها من اليهود، كما حرّمت مؤلفاته الفلسفية على طلاب العلم، ولم يبق هذا الهجران طويلاً فقد استدعاه الخليفة من اليسانة وقرّبه منه وتتلمذ الخليفةُ على يده في حقل الفلسفة.

كان جدُّ ابن رشد من أكابر القضاة وإمامَ المسجد الكبير في قرطبة، وصاحبَ

مؤلفات كثيرة في الشريعة الإسلامية. وكان والدُ ابن رشد كذلك قاضياً في قرطبة. نبغ ابن رشد في حقل الفقه على المذهب المالكيّ، وكذلك في الفلسفة والطبّ، ونما وترعرع في بيت علم وحكمة. وبعد تضلُّعه في الفقه عيَّنه الخليفة أبو يعقوب يوسف قاضياً في أشبيلية، وبقي هناك عامين، ثم عاد إلى مسقط رأسه قرطبةَ، حيث صار يمارس القضاءَ، وقد تتلمذ ابنُ رشد في الطبّ على يد آل زهر في قرطبة والمعروفين آنذاك بآل بختيشوع الأندلس، وتفنَّن في هذا المجال، واتفق مع أبي مروان بن زهر على تأليف موسوعة في الطبّ، شريطةَ أنْ يتولَّى ابن رشد الناحيةَ النظرية البحتة وابنُ زهر الجانبَ العمليّ، ويبدأ كلُّ واحد منهما بالعمل، ولكنَّ ابن زهر اعتذر عن إكمال المشروع لعدم وجود الوقت الكافي للقيام بتلك المهمّة الضخمة، وبالتالي انفرد ابنُ رشد بالمشروع فأخرج كتاباً في الطبّ سمّاه (الكليّات بالطب) وهو موسوعة طبية في سبعة مجلدات.

ومحتويات كتاب (الكليّات بالطب) لابن رشد تنحصر في علم التشريح وكلية الدورة الدموية عند الإنسان، وتشخيص بعض الأمراض المنتشرة آنذاك ووصفِ بعض الأدوية لها. كما ذكر ابنُ رشد في عدَّة أماكن من مؤلفاته أنَّ الجدريَّ لا يصيب المرء أكثر من مرة واحدة، وهذا ما توصَّل إليه الطبُّ الحديث. كما فهم فهماً جيداً الشبكيّة للعين. وهناك قولٌ مأثور عن ابن رشد: (من اشتغل بعلم التشريح ازداد إيماناً بالله).

كان ابنُ رشد جريئاً في رأيه لا يخاف في الحق لومةَ لائم. كرَّس جهودَه على إنتاج أرسطوطاليس لأنه كان من الذين يحترمون آراءَ أرسطوطاليس الفلسفية، فوضع ابن رشد شروحاً لها لم يسبقه بها أحدٌ، حيث إنّ طريقته في الشرح طريقةٌ نقدية خالية من الشوائب والتصنُّع. ولقد سبق ابنُ رشد في شرح كتب أرسطوطاليس بعضٌ من الفلاسفة المسلمين منهم: ابنُ سينا والفارابيّ وابن طفيل، ولكنّ شرح وتلخيص ابنِ رشد يختلف تماماً عن تلخيصاتهم، حيث أضاف ابنُ رشد إضافات جوهريةً زادت في فهم مؤلفات أرسطو العلمية، كما جزَّء شروحَه على ثلاث مراحل: الشرحِ الأكبر والأوسط والأصغر، وصنَّفها على حسب المستوى.

اشتهر ابنُ رشد بالتسامح في جميع أعماله، وذلك يظهر من قوله في كتابه (فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ما نصه: « يجب علينا إذا ألفينا لمن

تقدَّمنا من الأمم السالفة نظراً في الموجودات واعتباراً لهذا بحسب ما اقتضته شرائط البرهان، أنْ ننظر في الذي قالوه من ذلك، وما أثبتوه في كتبهم، فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسُررنا به أو شكرناهم عليه. وما كان غيرَ موافق للحق نبَّهنا عليه، وحذَّرنا منه، وعذرناهم، وعلينا أنْ نستعين على ما نحن في سبيله بما قاله من تقدَّمنا في ذلك، سواء أكان ذلك الغيرُ مشاركاً لنا في الملَّة أم غيرَ مشارك، فإنَّ الآلة التي تصحّ بها التزكية ليس يعتبر في صحة التزكية كونها آلةَ المشارِك لنا في الملّة أو غير مشارك إذا كانت فيها شروط الصحة».

ولا شكَّ في أنّ ابن رشد كان أحدَ كبار فلاسفتنا الذين يزخر بهم تاريخُنا المجيد، وقد ترك مآثرَ علمية جليلة استفادت منها بلاد الغرب التي تنعم الآن بحضارة راقية. وقد كان لابن رشد وغيرِه من علماء العرب والمسلمين الفضلُ الأول في بناء قاعدة تلك الحضارة، فقد استمدَّ الغرب من تراثنا الخالد، ذلك التراث الذي لا زال طلاب العلم الغربيون ينهلون منه في جامعاتهم وفي مجالات بحوثهم ودراساتهم. وقد بحث وتميز ابن رشد كثيراً في الفلسفة، ولكنه لم يترك الحقولَ الأخرى فعكف على القراءة والكتابة. ويُروى أنه لم ينقطع عن القراءة والكتابة إلاّ في ليلتين: إحداهما كانت عند وفاة والده، والثانية كانت ليلةَ زواجه، فقد ألَّف في الفيزياء والفلك والطب والفلسفة واللغة والأدب وغيرها.

وقد اهتمَّ ابنُ رشد بالحركة وملازمتها للزمن في الأجسام، وملازمتِها للفراغ ومعنى الميل، وقادت تلك الأفكارُ إلى عمل الديناميكا، واعترف كولومبس مكتشفُ أمريكا وبخطِّ يده أنه قد كان لمؤلفات ابنِ رشد الفضلُ الكبير في اكتشافه لأمريكا. وخلاصة القول: لقد أسرعت البلاد الأوربية منذ القرن الثالث عشر الميلاديّ إلى تعلُّم فلسفة ابن رشد فاندفع الكثير إلى ترجمة مؤلَّفاته في هذا المجال، وانصرف الآخرون إلى دراستها والتعليق عليها، وإنْ كان اسمُ ابن رشد كاد أنْ يُنسى في البلاد العربية والإسلامية، لمدّة سبعة قرون، فقد ظلَّ صداه يتردد في أوروبا النصرانية حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجريّ (الثامن عشر الميلادي) وإذا كان أثرُه في الثقافة العربية والإسلامية بقي ضئيلاً بل كاد أن يكون معدوماً فإنَّ تأثيره كان قوياً نافذاً في تطوير الثقافة الغربية والفكر الأوروبيِّ الحديث.

ابن سينا :

هو أبو علي الحسينُ بن عبد الله بن سينا، ولد في أقشنة قرب خرميش -قريةٍ من قرى بخارى- وتوفي في همذان، عاش بين سنتي ٣٧١ -٤٢٨ هـ (٩٨٠ - ١٠٣٦م)، وكان معاصراً لأبي الريحان البيروني وابنِ الهيثم. ووالده من بلخ التي كانت المركزَ الرئيس لولاية خراسان. أمّا والدته فهي من بخارى التي تقع الآن كلية في حوزة جمهورية أوز باكستان.

توفي والده وهو في الثانية والعشرين من عمره. كان والده من محبِّي العلم ومشجعي طلابه. فكان يدعو العلماءَ المشهورين آنذاك ليدرِّسوا لابنه الحسين القرآنَ الكريم والأدب وقواعد اللغة والفلسفة حتى أصبح يقرأ ويعلق على كثير من مؤلفات علماء اليونان مثل: كتبِ إقليدس الهندسية والمجسطي لبطليموس وكتب الطبيعيات والمنطق وغيرِها.

وقد جرت مناظراتٌ في الفلسفة والعلوم الأخرى بين ابن سينا والبيرونيِّ، ووقعت بعضُ الخلافات بينهما، ولكن يظهر أنها خصومةٌ كانت سياسيةً، حيث أن أبا الريحان البيروني من أقرب العلماء للسلطان محمود الغزنويِّ، بينما ابن سينا كان صديقاً حميماً لأمراء السامانين الذين حكموا سجستانَ وكرمان وجرجان وما وراء النهر وخراسانَ من ٢٦٠ - ٣٨٩ هـ؛ والذين كانت دولتهم أضعفَ بكثير من دولة السلطان محمود الغزنويّ، وكانت الخلافات قائمةً بين الدولتين على قدم وساق.

لقد تميز ابن سينا عن غيره في جميع فروع المعرفة، وعلى وجه الخصوص برز في معظم العلوم البحتة والتطبيقية مثل: الفلسفة والفيزياء، والهندسة والرياضيات والطب والكيمياء والصيدلية والنبات وعلوم الأرض وعلم الحيوان واللغة العربية نحواً وصرفاً وبلاغةً وشعراً.. وله مؤلفات في اللغة العربية تجعله في مقدمة علماء اللغة العربية.

حصل ابنُ سينا على ألقاب كثيرة في ريعان شبابه لنبوغه في كثير من العلوم، ومن هذه الألقاب الشيخ الرئيس والمعلم الثالث (أرسطوطاليس المعلم الأول والفارابي المعلم الثاني) وجالينوس العرب، وأمير الأطباء. حقيقة أنّ ابن سينا مات منذ مئات السنين، ولكنه معنا الآن بفكره الخلّاب الذي خلّده وجعله مدارَ حديثنا هنا.

obeikandi.com

اشتهر ابنُ سينا بين زملائه وتلاميذه بالذاكرة العظيمة وسرعةِ الفهم وكثرة النتاج العلميّ. لذا نراه شرح الفلسفةَ اليونانية وخاصة فلسفة أفلاطون وأرسطوطاليس بأسلوب شيّق وديباجةٍ مشرقة. فهو بحق من فلاسفة المسلمين الذي تونوا إبراز الفلسفة الإسلامية ويظهر ذلك من قوله: (حسبنا ما كُتب من شروحٍ لمذاهب القدماء، لقد آن لنا أنْ نضع فلسفةً خاصة بنا).

لقد عانى ابن سينا كثيراً من المرتزقة المحيطين بولاة الأمر آنذاك، فقد دخل السجن مرتين: مرةً في عهد شمس الدولة البويهي حاكم همذان، ومرة ثانية في عهد علاء الدولة أميرِ أصفهان، وكذلك سُرقت كتبه الثمينة، لأنه نبغ في جميع فروع المعرفة. كان ابن سينا يردّد هذه الأبيات عندما آذته ألسن الحسّاد من بين معاصريه:

عجباً لقوم يحسدون فضائل
ما بين غيّابي إلى عُذّالي
عتبوا على فضلي وذمُّوا حكمتي
واستوحشوا من نقصهم بكمالي
إني وكيدَهمُ وما عتبوا به
كالطود يحقر نطحة الأوعال
وإذا الفتى عرف الرشادَ لنفسه
هانت عليه ملامة الجهَّالِ

لقد تأثر النابغون في العالم أجمعَ بابن سينا في أفكاره الفلسفية وعلى رأسهم توما الأكويني والطوسي وغيرهما. وذلك لما تحتويه مؤلفاته في حقل الفلسفة من مادة علمية معتمدةٍ على المنطق والاستقراء الرياضيّ.

لذا لقد حلّق ابن سينا في سماء الفلسفة، فكان من العلماء الذين يعتمدون على علم الفلسفة في دراساتهم العلمية. فهو مؤسسُ علم الفلسفة الإسلامية.

كان ابنُ سينا على جانب كبير من الثقافة والتجربة العلمية، حيث اشتهر بالدقة والعمق في بحوثه وكشوفه الفلسفية.

لذا نرى أنّ كلاًّ من روسيا وتركيا وإيران يدّعون أنّ ابن سينا من علمائهم المرموقين.

على كلٍّ حال، معروف لدى العالم أجمع أنه عاش في ظلّ الحضارة العربية والإسلامية التي لا تقيم للعنصرية وزناً، بل إنّ علماء العرب والمسلمين حاربوها بكل ما يملكون من قوة.

وأخيراً أقول: يجب أنْ نفكر قليلاً فيما عمله الأجدادُ مثل ابن سينا لكي نقدر أنْ نثق بذاتنا ونحاولَ إعادة بناء شخصيتنا، حتى نصبح أعظمَ أمّة أُخرجت للناس.

فجدُّنا ابن سينا هو صاحبُ المنهج الفلسفيّ الذي يقوم على التجربة والاستقراء، وليس فرانسيس بيكون الذي أتى بعده بمئات السنين.

وصدق موسى الموسوي عندما قال في كتابه (من الكندي إلى ابن رشد) ما نصه: «وسيطرة آراء ابن سينا الفلسفية على المفكّرين والفلاسفة امتدت جذورها إلى القدّيس (توما الأكويني) وذهب بعض الباحثين أنّ فلسفة الأكويني إنما هي من تراث تعاليم ابن سينا، وحظي ابنُ سينا دون سواه من نوابغ المفكرين بكثرة الدراسات التي وُضعتْ حول آثاره وآرائه وبتأثير مدرسته الفكرية على أفكار الفلاسفة المتأخرين».

وقد التقتْ في ابن سينا شخصيات عديدة قلّما نجد لها شبيهاً في غيره من نوابغ المعرفة فهو فيلسوفٌ منهجيّ وصاحب مدرسة فلسفية ذاتِ نظريات معينة. وهو في نفس الوقت منطقيٌّ كبير كشف عن آراء أرسطوطاليس المنطقية وهذّبها.

ابن باجه:

هو أبو بكر محمدُ بن يحيى بن الصائغ المشهور بابن باجه، ولد في مدينة سرقسطةَ، ولا يُعرف تاريخ ولادته ولكنه عاش ردحاً من الزمن في غرناطة وتوفي في مدينة فاس المغربيةِ سنة ٥٣٣ هجرية (١١٣٨ ميلادية). درس فلسفةَ أرسطو طاليس وتفنن بذلك، كما اطّلع على كتب الفارابيّ وابن سينا والشيخ الغزاليّ ودرسها عن كثب وأعجب كثيراً بما ورد من معلومات فلسفية قيمة. اشتهر ابن باجه بأنه ذو موهبة وبراعة في كثير من العلوم، ولكنه بدون أدنى شك تميز في الفلسفة والرياضيات والفلك والطب والصيدلة.

لقد كان ابن باجه من كبار علماء العرب والمسلمين في العلوم البحتة، ولكنه لم يكتف بهذا بل انصرف أيضاً إلى العلوم العملية مثل: الطب والصيدلة، لذا نرى حسّاده كثراً وصاروا يحاولون القضاءَ عليه، ومثله مثل غيره عبر التاريخ، وبالفعل نجح هؤلاء الحاقدون الذين أتهموه بأن قتلوه بالسم.

عُرف ابن باجه في الغرب باسم Avem Pace وتُرجم إنتاجه الفكريّ وخاصة الفلسفيّ من اللغة العربية إلى اللغتين اللاتينية والعبرية، ومن ثم إلى لغات أوربية أُخر. لقد كان لفلسفة ابن باجه أكبرُ الأثر على وجهة نظر كل من ابنِ طفيل وابن رشد الفلسفية، علاوةً على تأثيره على تفكير ألبرت الكبير Albertus Magnus من النصارى الذي تفوق في علمي الفلسفة والنفس على غيره من أبناء جلدته.

كما تكلّم ابنُ باجه عن الذكاء في مؤلفاته بطريقة تدلُّ على أنه اهتم اهتماماً بالغاً بعلم النفس لا يقلُّ أبداً عن اهتمامه بعلم الفلسفة وهذا طبعاً لاعتقاده أنَّ علم النفس من العلوم المهمة جداً للأطباء والفلاسفة على السواء.

لقد تأثر البطروجيُّ الذي يعتبر من كبار علماء الفلك في أشبيلية الأندلسية بملاحظات ابن باجه على كتاب المجسطي لبطليموس، بل إنّ ملاحظاته وانتقاداته البناءةَ لإنتاج بطليموس في الفلك عامةً قادت أبا إسحاق نورَ الدين البطروجي الأشبيليّ إلى نجاحه الهائل في علم الهيئة الذي ضمَّنه نظرياتٍ في حركة الكواكب والتي في النهاية دلَّت البطروجيَّ إلى ابتكاره الحركةَ اللولبية (Spiral Motion) التي تعتبر في غاية الأهمية في التكنولوجيا الحديثة.

حقيقةً أنّ ابن باجه يُعتبر موسوعةً في العلوم البحتة والتطبيقية على السواء، فقد تفنن في الفلسفةِ والرياضيات والأدب والموسيقى والطب والصيدلة علاوةً على علم الحركة والفلك، فقد عمل دراسةً مفصلةً عن علم الحركة تدلُّ على طول باعه في هذا المجال الحيويّ.

لقد وضع ابنُ باجه كثيراً من المؤلَّفات في الفلسفة والمنطق والطبِّ والصيدلة والهندسة والنبات والفلك وعلم النفس وغيرها. لقد حلَّق ابن باجه في سماء علماء العرب والمسلمين البارزين الذين أسهموا في تطوير حضارة عربية وإسلامية لخدمة الإنسانية أجمع.

ومما يؤسف له أنّ معظم نتاج هذا العملاق الفكريّ ضاع، ولم يبق منه إلا شذرات قليلة توجد في رسائلَ وكتب باللغة اللاتينية أو العبرية، وقد ذكر ابنُ أبي أصيبعة بعضَها في كتابه المشهور «عيون الأنباء في طبقات الأطباء».

ربما يسأل القارىء: هل يُعتبر ابن باجه من كبار علماء الفلسفة والطبِّ والعلوم الأخرى التي ساهم فيها؟ الجواب على ذلك أنّ ابن باجه مثله مثل معظم علماء العرب والمسلمين في العلوم، من الصعب جداً أنْ نصنّفهم لعلم محدّد بالضبط، فمن القراءة عن ابن باجه يلزمنا أنْ نعترف أنّ نتاجه أكثرُ من غيره في حقل الفلسفة، لذا نستطيع أنْ نقول أنه لا بأس إذا وضعناه في أعلى قائمة فلاسفة العرب والمسلمين.

هناك إجماعٌ عند مؤرّخي العلوم أنّ ابنَ باجه كان ثاقبَ الذهن وصادق الرؤية، لذا نجد أنّ دراسته الفلسفية كانت تماماً مستقلّةً عن الدِّين، فلم يخض في أمور يجهلها.

والجدير بالذكر أنّ أفكار ونظريات ووجدان ابن باجه تظهر معالمها في «رسالة الوداع» التي أظهر فيها أنّ المحرك الرئيس للإنسان هو التصوّرُ وما يمليه عليه ضميره وفكره، وأنّ الهدف الأول من وجود الإنسان في هذه الحياة على ظهر الأرض هو التقرُّب إلى المولى عزّ وجلّ. لذا نجد أنّ ابن باجه من علماء العرب والمسلمين الذين أسهموا إسهاماً فعّالاً في تقدم حضارة الإسلام.

وأرجو اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يشاءَ لشباب أمتنا العربية والإسلامية أنْ يدرسوا مصنفات هذا العالم الجليل الفذّ، ليس فقط في علم الفلسفة ولكنْ أيضاً في العلوم الأخرى، حتى تتكون لدينا فكرةٌ شاملة عن هذا النابغة لأنه لم ينل حقَّه من الدراسة الموضوعية.